المحاضرة الثالثة: علم التاريخ وتطوره عند اليونان

I: نشأة علم التاريخ عند اليونان

علم التاريخ عند اليونان لم ينشأ فجأة، بل تطور تدريجياً من خلال تفاعل مجموعة من العوامل الفكرية والاجتماعية والسياسية التي ساعدت على نقله من مرحلة الأسطورة والرواية الشعبية إلى علم يعتمد على البحث والتحليل.

في المراحل الأولى من الفكر اليوناني، كان التاريخ متشابكًا بشكل كبير مع الأساطير والملاحم، حيث لجأ اليونانيون إلى الأساطير لفهم الماضي وتفسيره. ويتجلى هذا التداخل بوضوح في أعمال هوميروس، مثل *الإلياذة* و*الأوديسة*، التي تمثل نماذج بارزة لهذا النوع من السرد التاريخي الممتزج بالخرافات. فقد لعبت الآلهة والشخصيات الأسطورية دورًا مركزيًا في تفسير الأحداث، مما جعل الروايات التاريخية أقرب إلى الأدب منها إلى التوثيق الدقيق.

في تلك الفترة، كان الهدف من السرد التاريخي يتمثل في تعزيز القيم الاجتماعية مثل البطولة والشرف، بدلاً من التركيز على تسجيل الحقائق التاريخية.

في القرن الخامس قبل الميلاد، بدأ الفكر الفلسفي يشكل تأثيرًا واضحًا على رؤية اليونانيين للتاريخ، مما أدى إلى انفصاله التدريجي عن الأساطير. ويُعزى هذا التحول إلى شخصيات بارزة مثل هيرودوت (484–425 ق.م)، الذي يُعد أول من تناول دراسة الماضي بأسلوب شامل ومنهجي. يُعتبر كتابه *التواريخ* محاولة رائدة لجمع الروايات المختلفة المتعلقة بالحروب الفارسية، مع تقديم وصف للثقافات والجغرافيا المرتبطة بها. ورغم أنه لم يتحرر تمامًا من تأثير الأساطير، إلا أنه بذل جهدًا ملحوظًا للتحقق من صحة الروايات من خلال السفر واستقاء المعلومات مباشرة من الشهود.

قبل الحديث عن هيرودوت وتطور علم التاريخ لا بد أن نشير الى هوميروس وبداية الوعي التاريخي عند اليونان.

يُعد هوميروس أول من أدرك قيمة التاريخ في الفكر اليوناني، حيث تناول في ملحمته الشهيرة *الإلياذة* الأحداث الأخيرة للحرب الطروادية، التي دارت رحاها حول مدينة إيلون (إليوس) نحو عام 1200 أو 1100 ق.م. وتُعد هذه الملحمة المصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه المؤرخون لاستكشاف بعض خفايا تلك الحرب والتعرف على العديد من الجوانب الحضارية لبلاد اليونان خلال تلك الفترة. من هنا، يمكن القول إن الفكر

التاريخي اليوناني بدأ يتبلور مع تشكّل الأصول الأولى لأشعار هوميروس، مما يجعل *الإلياذة والأوديسة* أول تعبير عن وعي بأهمية التاريخ في الفكر اليوناني، وأول محاولة لتقديم قراءة إنسانية للتاريخ الأسطوري لليونان.

II: هيرودوت وثيوكيديدس وتأسيس علم التاريخ

في مدينة هليكرناسوس بالأناضول ولد المؤرخ هيرودوت وذلك في حدود 481 ق م وكانت هذه المدينة على صلة بالسكان غير اليونانيين في آسيا الصغرى ومنهم الكاريين وهم شعب خضع لسيطرة الفرس، انعكس هذا على رؤية هيرودوت وطريقة تفكيره.

طاف هيرودوت في البلاد خاصة حوض المتوسط والهلال الخصيب، حسب ما تظمنه كتابه "التواريخ" ، وحسب جينيفر روبرتس Jennifer Roberts أستاذة التاريخ اليوناني بجامعة مدينة نيويورك (لها الكثير من المؤلفات في مجال التاريخ الإغريقي ولها اهتمامات بالديموقراطية قديما وحديثا) فإن هيرودوت عاش في زمان فاصل بين حقبتين ثقافيتين مقروءة ومسموعة، وفي مكان يعتبر حدا فاصلا بين حضارتين مختلفتين الفاريسة واليونانية، لذا تعد أعمال هيرودوت بداية نشوء تقليد القراءة وحلولها محل السماع في الثقافة اليونانية.

كما يعتبر كتاب "التواريخ" من أوائل الكتب المتداولة بين الجمهور اليوناني الذي طبق فيه هيرودوت المنهج الإثنوغرافي في معالجة الأحداث التاريخية وكتابة تاريخ الحاضر (اليوناني)، ووسّع استخدامه زمانا ومكانا، ويظهر هذا واضحا وجليا في تقسيم الكتب والأبواب التي اشتمل عليها "التواريخ"، لتشمل العديد من الشعوب المحيطة بالعالم اليوناني، أو تلك التي تفاعل معها اليونان واحتكوا بها.

استند هيرودوت في كتاباته إلى مصادر متنوعة، منها الموروث الشعري القديم، وملاحظاته الشخصية التي جمعها خلال رحلاته واستقصاءاته الواسعة. كما استفاد من الملاحم التي كتبها الشعراء اليونانيون الذين سبقوه، ومن روايات تناقلها الناس، سواء ممن عايشوا الأحداث أو من خلال الحكايات الشعبية المتوارثة عن الحقب الماضية في اليونان وما حولها. ومع ذلك، تميّزت *التواريخ* بتركيزها على المشاهدات المباشرة أكثر من اعتمادها على الشهادات فقط، إذ وظف هيرودوت رحلاته واستكشافاته عبر البلدان والممالك لفهم عادات الشعوب ومعايشة الوقائع التي وثّقها، مما أتاح له تحليل الأحداث في سياقها المباشر.

يعتبر هيرودوت أول من حقق الشروط العلمية في تأريخه، فقد استخدم لفظ Historia اليوناني الذي يعني بحث أو استقصاء للدلالة على هذا العلم. ومن ثم فهو أبو التاريخ كما أجمع على ذلك معظم العلماء والمؤرخين. وقد حدد هدفه من التاريخ تحقيق مسألتين أساسيتين هما:

_ حفظ ذاكرة الماضي بتسجيل الانجازات المدهشة سواء التي قام بها اليونان أو التي قامت بها الأمم الآسوية الشرقية.

_ تأريخ كيف تم الصدام بين السلالتين من خلال ما أرخه للحروب اليونانية_الفارسية، ومحاولة الوصول إلى أسباب الصراع العنيف بين اليونان والفرس.

إن الوعي التاريخي عند هيرودوت بلغ حدا ارتبط فيه التاريخ بالجغرافيا، ودراسة الاجناس البشرية، ذكر ذلك جورج سارتون George Sarton (وهو مؤرخ وكميائي أمريكي من أصول بلجيكية متخصص في تاريخ العلوم) حينما وصف كتاب هيرودوت بقوله: " انه ليس أول مصنف في التاريخ فحسب بل هو أيضا أول مصنف في الجغرافيا البشرية".

تأثر هيرودوت بالفلاسفة الأيونيين الأوائل، مما ساهم في تطوير نهج علمي من خلال تناوله للأحداث التاريخية. واستطاع من خلال هذا النهج إخضاع الأساطير التاريخية، التي تناقلها اليونانيون شفهيًا، الى عملية تمحيص وتحليل دقيق. وقد انعكس هذا المنهج العلمي على عقليته المنفتحة، التي تجنبت التعصب للجنس اليوناني، وقادته إلى تبني موضوعية في تناول التاريخ. هذه الموضوعية دفعته إلى التأكيد مرارًا على الجذور الشرقية للحضارة اليونانية، سواء في مجال الفلسفة أو في العقائد الدينية.

تطور الوعي التاريخي وعلم التاريخ اليوناني كثيرا على يد المؤرخ ثيوكيديدس Thucydides (ثوقيديدس) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (471_401 ق م أو 460_395 ق م)، لقد نجح في تأكيد علمية التاريخ حينما اختار موضوعا محددا لتأريخه وهو الحروب البلوبونيزية التي دارت رحاها بين مدينتي أثينا واسبرطة فيما بين عامي 431 و404 ق م وامتدت لتشمل كل المدن اليونانية تقريبا.

لقد حدد ثيوكيديدس الحدث التاريخي الذي سيؤرخ له كما حدد الأسباب التي دعته لتسجيل هذه الوقائع التي جنحت للعلمية والموضوعية أكثر من أسلوب سلفه هيرودوت باعتبار أن كتاباته خلت من تمجيد الآلهة والمعجزات وما شابه ذلك كما عنى بتحقيق الأحداث التي رواها تحقيقا علميا.

أما مسادره التي اعتمد عليها في تأريخه فكانت:

_ معايشته الخاصة للأحداث التي عاصرها.

_ المعلومات التي استمدها من الرواة.

_ بعض الوثائق التي حصل عليها، مثل نصوص معاهدة انيكياس، ونصوص الحلف بين الأثينيين وحلفائهم.

_ الشواهد الأثرية مثل بحثه عن أصول اليونانيين لدرجة أن لقبه البعض ب "أبا لعلم الآثار" ذلك لأنه كان يعلم أنه يقدم لقرائه تأريخا جافا خاليا من المتعة والتسلية التي كانت موجودة في الكتابات الأخرى وكان يدرك أن ما كتبه وما قدمه من علم "ليبقى إلى الأبد".

III: العوامل التي ساعدت على نشأة علم التاريخ عند اليونان

أولا: التطور الفلسفي

الفلسفة كانت ركيزة أساسية في نشأة علم التاريخ عند الإغريق، حيث قدمت أدوات للتحليل العقلاني والمنطقي، وهو ما انعكس على منهجية كتابة التاريخ.

1_ الفلسفة الطبيعية: بدأت مع الفلاسفة الطبيعيين مثل طاليس وأنكسيمانس، حيث سعوا إلى فهم الطبيعة والعالم من خلال البحث العقلاني بدلاً من الاعتماد على الأساطير. هذه العقلانية انتقلت إلى دراسة التاريخ.

- مثال :هيرودوت اعتمد على العقلانية لفحص الأحداث واختيار الروايات الأكثر منطقية، بدلاً من قبول الأساطير دون نقد.

2_ سقراط وأفلاطون: سقراط أدخل أسلوب الحوار والسؤال للوصول إلى الحقيقة، وأفلاطون شجع البحث في أصول الظواهر الاجتماعية والسياسية.

- مثال: تأثير هذا المنهج بدا واضحاً في تحليل ثيوكيديدس للحرب البيلوبونيسية، حيث استخدم أسلوباً نقدياً لفهم أسباب النزاع.

3_ أرسطو: بتأسيسه للمنطق كأداة لفهم العالم، أثر في المؤرخين اللاحقين من خلال تقديم نماذج للتحليل السببي للأحداث التاريخية.

ثانيا: التوسع الجغرافي

الرحلات التجارية والاستكشافية التي قام بها الإغريق لعبت دوراً مهماً في نشأة علم التاريخ.

1_ تبادل الثقافات: انفتاح الإغريق على شعوب مختلفة ساعد في تكوين رؤية أوسع عن العالم والأحداث.

- مثال: هيرودوت، المعروف بـ"أبو التاريخ"، اعتمد بشكل كبير على مشاهداته الشخصية وروايات الشعوب المختلفة التي زارها أثناء رحلاته إلى مصر وبابل وغيرها.

2_ تسجيل الأحداث: أصبح من الضروري توثيق تفاصيل هذه الرحلات لضمان نقل المعرفة إلى الأجيال القادمة.

- مثال: كتابات هيرودوت عن الفرس والمصريين كانت نتيجة مباشرة لرحلاته واستطلاعه الثقافات الأخرى.

ثالثا: الحروب والنزاعات

الحروب الكبرى التي خاضها الإغريق كانت حافزاً لتوثيق الأحداث التاريخية بشكل منهجي.

1_ الحروب الفارسية: مثل معركة ماراثون وسلاميس، أثارت الحاجة لتوثيق تفاصيلها لأهميتها في تشكيل هوية الإغريق كأمة.

- مثال: هيرودوت كتب عن الحروب الفارسية معتمداً على مصادر متعددة ومنظور تحليلي لتوثيق أسبابها ونتائجها.

2_ الحرب البيلوبونيسية: النزاعات بين أثينا وأسبرطة دفعت ثيوكيديدس لتقديم توثيق دقيق للأحداث، حيث ركز على الأسباب السياسية والاجتماعية للحرب.

- مثال: أسلوب ثيوكيديدس كان مميزاً لأنه اعتمد على منهج نقدي وموضوعي، مما وضع أسساً جديدة للكتابة التاريخية.

رابعا: البيئة الديمقراطية في أثينا

أثينا، بوصفها مركزاً للحرية الفكرية والنقاش العام، وفرت بيئة مثالية لتطوير علم التاريخ.

1_ الحرية الفكرية: النقاشات العامة والمداولات في الساحات (الأغورا) شجعت على التفكير النقدي والبحث عن الحقيقة.

- مثال: المؤرخون الأوائل مثل هيرودوت وثوقيديدس تأثروا بهذا المناخ المفتوح، حيث كان من الممكن مناقشة الأفكار بحرية.

2_ التوثيق السياسي: مع ازدهار الديمقراطية في أثينا، ظهرت الحاجة لتوثيق الأحداث السياسية والنقاشات في المجالس العامة.

- مثال: خطب بريكليس الشهيرة التي وثقها ثيوكيديدس تعكس هذا الجانب، حيث كان التوثيق جزءاً من الحياة العامة.

IV: تطور منهجية التأريخ عند اليونانيين

أولا: التحقق من المصادر

كان المؤرخون اليونانيون يعتمدون على جمع الروايات من مختلف المصادر، ثم يعملون على التحقق منها للوصول إلى الرواية الأكثر مصداقية.

1_ جمع الروايات من شهود العيان

_ خاصة في الحروب الفارسية، حيث تحدث هيرودوت إلى الجنود والشهود الذين شاركوا في الأحداث أو عاصروها.

_ مثال هيرودوت في كتابه "التواريخ"، أشار إلى أن بعض المعلومات التي يرويها قد تكون منقولة شفهيًا، وأوضح أنه يعرضها كما وردت إليه، لكنه أحيانًا ينتقدها أو يشكك في دقتها.

2_ مقارنة الروايات المختلفة

_ قدم ثيوكيديدس نهجًا أكثر دقة، حيث كان يقارن بين الروايات المختلفة، ويحاول التمييز بين ما هو قابل للتصديق وما هو غير منطقي.

_ مثال: أثناء توثيقه للحرب البيلوبونيسية، راجع شهادات مختلفة وقارن بينها، مستبعدًا الروايات المتحيزة أو المبالغ فيها.

ثانيا: الملاحظة المباشرة

اكتسبت الملاحظة المباشرة أهمية كبرى في منهجية المؤرخين اليونانيين، حيث سافر المؤرخون إلى المواقع الجغرافية المرتبطة بالأحداث لفهمها بدقة.

1_ السفر إلى المواقع الجغرافية

_ زار هيرودوت مصر وبابل وليديا وغيرها من المناطق، وكتب عن تقاليدها وثقافاتها ليضيف إلى فهمه للأحداث التاريخية.

_ وصف هيرودوت لنهر النيل وأساليب الري المصرية، والذي استند إلى مشاهداته المباشرة خلال رحلاته.

2_ دراسة الثقافات المختلفة

_ المؤرخون لم يقتصروا على دراسة الأحداث فقط، بل تناولوا العادات والتقاليد المحلية لفهم السياق الثقافي والتاريخي.

_ مثال: هيرودوت تناول حياة الفرس والمصريين، وقدم مقارنات بين هذه الثقافات وثقافة الإغريق، مما أضفى طابعًا عالميًا على كتاباته التاريخية.

ثالثا: تحليل الأسباب والنتائج

مع تقدم منهجية التأريخ، بدأ المؤرخون الإغريق في التركيز على فهم الأسباب والنتائج، بدلًا من مجرد سرد الأحداث.

1_ العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية

_ ركز ثيوكيديدس على الأسباب العميقة للحرب البيلوبونيسية، مثل التنافس السياسي بين أثينا وأسبرطة، والتوترات الاجتماعية والاقتصادية.

_ مثال: في تحليله، أشار إلى أن الحرب لم تكن مجرد نزاع عسكري، بل نتيجة لتحولات سياسية وتحالفات معقدة.

2_ تقديم تفسيرات منطقية للأحداث

_ المؤرخون الإغريق سعوا لتجنب الإسناد إلى الآلهة أو الأساطير، وبدلاً من ذلك ركزوا على تفسيرات عقلانية.

_ مثال: عندما كتب ثوقيديدس عن الطاعون الذي أصاب أثينا، وصف الأعراض وقدم تفسيرًا علميًا مبنيًا على المشاهدة، متجنبًا التفسيرات الميتافيزيقية.